النَّوعُ الحادي والثَّلاثون

في خواتِم السُّور

هي أيضاً مثل الفواتح في الحُسْن؛ لأنها آخر ما يَقْرَع الأسماع، فلهذا جاءت متضمِّنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوُّفٌ إلى ما يُذكر بعد، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض، وتحميد وتهليل، ومواعظ، ووعْد ووعيد، إلى غير ذلك.

كتفصيل جملة المطلوب في خاتمة الفاتحة، إذ المطلوب الأعلى: الإيمان المحفوظ من المعاصي المسبِّبة لغضب الله والضلال، ففصَّل جملة ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. والمراد: المؤمنون، ولذلك أطلق الإنعام ولم يقيِّده ليتناول كلَّ إنعام، لأن من أنعَم الله عليه بنعمة الإيمان فقد أنعم عليه بكل نعمة، لأنها مستتبعة لجميع النِّعم، ثم وصفهم بقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ يعني أنهم جمعوا بين النِّعم المطلقة وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله تعالى والضَّلال المسبّبين عن معاصيه وتعدّي حدوده.

وكالدُّعاء الذي اشتَملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة.

وكالوصايا التي خُتمت بها سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ الآية.

والفرَائض التي خُتمت بها سورة النساء، وحسُنَ الخَتْم بها لما فيها من أحكام الموت الذي هو آخر أمر كلّ حيّ، ولأنَّها آخر ما أُنزل من الأحكام[1]. [البخاري: ٤٦٠٥، ومسلم: ٤١٥٢ و٤١٥٣، وأحمد: ١٨٦٣٨].

وكالتبجيل والتعظيم الذي خُتمت به المائدةُ.

وكالوعد والوعيد الَّذي خُتمت به الأَنعامُ.

وكالتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة الذي ختمت به الأعراف.

وكالحضّ على الجهاد وصِلَة الأرحام الذي خُتم به الأنفال.

وكوصف الرسول ومدحه، والتهليل الذي ختمت به براءة.

وتسليته عليه الصلاة والسلام الذي ختمت به يونس، ومثلها خاتمة هود.

ووصف القرآن ومدحه الذي ختم به يوسف.

والوعيد والردّ على مَنْ كذَّب الرسول الذي خُتم به الرعد.

ومن أوضح ما آذن بالختام خاتمة إبراهيم: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ . . .﴾ الآية، ومثلها خاتمة الأحقاف،

---

(١) ولفظ مسلم: «آخرُ سورةٍ نزلت براءةٌ، وآخرُ آيةٍ نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾».

وكذا خاتمة الحجر بقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾؛ وهو مفسَّر بالموت، فإنها في غاية البراعة.

وانظر إلى سورة الزلزلة كيف: بُدئت بأهوال القيامة وخُتمت بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

وانظر إلى براعة آخر آيةٍ نزلت، وهي قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وما فيها من الإشعار بالآخريّة المستلزمة للوفاة.

وكذلك آخر سورة نزلت وهي سورة النصر، فيها الإشعار بالوفاة، كما أخرج البخاريّ [٤٩٧٠] من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن عمر سألهم عن قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، فقالوا: فتح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: أجلٌ ضُرِب لمحمد، نُعيَتْ له نفسُه. [وأحمد: ٣١٢٧].

وأخرج أيضاً عنه قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكأنَّ بعضَهم وجَدَ في نفسه، فقال: لِمَ تُدْخل هذا معنا، ولنا أبناء مثلُه؟ فقال عمر: إنَّه مَن قد علمتُم. ثم دعاهم ذات يوم، فقال: ما تقولون في قول الله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أُمِرنا أن نحمد الله ونستغفرَه إذا نَصَرَنا وفتح علينا. وسكَت بعضُهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عَباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أَجَل رسول الله ﷺ أعلَمَه به، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾، فقال عمر: إني لا أعلم منها إلَّا ما تقول.